سليمان بن سليمان

(5ديسمبر 1905-26فيفري1986)

(1)

التنشئة الأولى وفترة الدراسة في تونس(1905-1925)

بقدر ما يلح سليمان بن سليمان على منشئه الريفي الزغواني ، مقابلا دائما بينه وبين العاصمة ممثلة في تونس العاصمة الأوربية والمرسى ، فان المرء لا يكاد يعثر ، في ما يتصل بانتماء عائلته السياسي ، على شيء يذكر: فهي عائلة مسلمة محكومة بهدا الشعور الديني الذي حكم أغلب التونسيين والجزائريين والطرابلسيين ودفعهم إلى الإيمان الباهت بأن مصير الخلافة العثمانية هو مصيرهم لدلك رأيناهم أثناء الحرب الكبرى أي حرب 1914-1918 يناصرون الخلافة وحلفاءها ومنهم ألمانيا القيصرية ويعادون خصومها ومنهم أنقلترا وخاصة فرنسا:

"لحق عائلتي في زغوان أثناء هده الحرب ضرر كبير فأخي قاسم وهو كبير العائلة حكم عليه بست سنوات سجنا وبالخضوع للمراقبة الإدارية لأنه ردد النشيد:

ياتونس وعلاش حزينة كانك على الألمان غدوة يجينا

(لم أنت حزينة يا تونس ؟ إن كان حزنك بسبب غياب الألمان فان غياب هؤلاء لن يطول)

وأنا أيضا كدت أن أكون عرضة للمشاكل اذ حدث أن بادلت زميلي (في الدراسة) قاسم والي(1) ورقة كتب عليها جملة تفيد التعاطف مع الأتراك أحلاف الألمان ولم يكن مدير مدرستي يحتملني. لقد كانت كل عائلتي تتمنى أن ينتصر الألمان حلفاء الترك المسلمين"(2)

---

1)سيتزوج سليمان بن سليمان ابنته زهرة في جويلية 1947 .انظر ص 214 من المصدر الذي سيلحق في الحاشية عدد 2

2)سليمان بن سليمان، ذكريات سياسية (بالفرنسية) ، تونس ، سيريس للإنتاج، 1989 ، ص 24.

ه ـدا الشاهـد يتضمـن عددا من المحاور التـي لا بـد مـن التوقـف عندها لشـح المعلـومات المتصلـة بحياة العائلـة السليمانيـة في الريـف الزغوانـي قبـل انتقـال سليمان بن سليمان إلى العاصمـة بعد الحرب الكبرى للدراسـة فـي المدرسـة الصادقيـة وهـي دراسـة تـزامـن تحولـه من الفكرة الإسلامية إلى الفكرة الوطنيـة.

أول هده المحـاور هو المحـور المتصـل بميول العائلة السليمانية السياسية الدينيـة:

إن بلاد شمال أفريقيا ، باستثنـاء مراكش أو مروكش التي لم يشملها الحكم العثمانـي الذي كان يمكنـه ، على تخلفـه مقارنة بأوربا أن يزيد من توثيـق عراها ببقيـة بلاد المغرب ، لـم تكن تـرى في الحكـم العثمانـي "استعمارا" مثلما كان الشأن بالنسبـة إلى دعاة القوميـة العربية الأوائـل من الشـوام المسيحييـن خاصـة مند نهايات النصف الثانـي مـن القرن التاسع عشـر اذ أن المغـاربـة هـم الديـن استنجدوا بالعثمانييـن (لا بالأتراك)بعـد أن أحـسـوا بهجمـة غربيـة مسيحيـة كاسـحـة (اسبانيـة وبرتغاليـة) عليهـم في القرن السادس عشـر الميـلادي أي في هـدا القـرن الذي ادا كانـت فيـه بـدور الدولـة القوميـة تمكـن لنفسـهـا في التربـة الرأسماليـة الغربيـة فإنها كانـت مفـقـودة تـمامـا فـي بلاد العرب والمسلميـن التي مـا زالـت أسـس مجتـمـعاتـها تـقوم علـى مفاهيـم تقليديـة مـا قبـل رأسماليـة لا قيـمـة للـحدود أو الجنسيـة فيهـا: فخيـر الديـن باشا(1) على سبيـل المثـال الذي يعـد مرجـع التونسييـن الإصلاحيين (2) لـم يحـل انتسابـه إلى تونـس دون تـولـي منصب الصدارة العظمـى في الآستـانـة (3) فترة مـن الزمـن أثنـاء حكـم السلطان عبد الحميد (4) رافـع شعـار " الجامعـة الإسلامية ".

مـن هنـأ نفـهـم أن شـعور العائلـة السليمانيـة وان كان "شعـورا دينيا سياسيا ابتدائيـا" فهـو شعـور عميـق الجذور. والتقليـل مـن شأنـه قـد يقـود إلى أخطـاء فكريـة سياسيـة فـي مـوضـوع مثـل موضوعنـا يشبـه العمل فيـه عمـل الصيدلانـي الذي عليـه أن يسيطـر سيطـرة تامـة علـى المعرفـة بـالمكاييـل والموازيـن في صنـع دوائـه (5)

---

1)"خير الدين(1820-1890)، سياسي ومصلح ورجل دولة أصله من قبيلة أباظة الشركسية .شغل العديد من المناصب وارتقى فيها.سافر إلى العديد من الدول الأوربية وأفاد منها الكثير في تشكل وعيه الإصلاحي.له كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" أودع فيه خلاصة آرائه في الإصلاح والتمدن":محمد محفوظ ، تراجم المؤلفين التونسيين، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، 1980.

2)مفهوم الإصلاح فضفاض لا بد في كل موضع من تحديد مضمونه الاجتماعي إضافة إلى مضمونه السياسي. فمـن يعد "مصلحا" عند أنصار هده المدرسة قد يعـد عند خصومهم "معاديا للإصلاح" .

3)الآستانـة:عاصمة الدولة العثمانية.

4)عبد الحميد (1842-1918) هو السلطان العثماني (1876-1909) الذي ثار عليه الضباط الشبان سنة 1908 وفرضوا عليه إصدار دستور للبلاد قبل أن يخلعوه سنة 1909.

5) اشتد سليمان بن سليمان في مقاومـة من نشط من الديانيين التونسيين سياسيا لا لموقف من الإسلام ولكن من المسلمين. ومن لا يميز بين الأمرين قد يتخذ من هدا الطبيب والمفكر الذي قاوم فرنسا مثلما قاوم فيما بعد "صديقه" بورقيبة وتعرض للامتحان موقفـا أقل ما يقال فيه انه موقف عشوائي أي لا يدل على بعد نظر.

وهـده الملاحظة الأخيـرة تقـودنـا إلى المـحور الثانـي وهـو خـلـو ذكريات سليمان بن سليـمان السياسيـة المتصلـة بفـتـرة مـا قبـل 1918 أو الفتـرة القصيـرة اللاحقـة مـن أيـة إشارة إلى "التـونسييـن الفتيان" من دعـاة "التـواصـل" بيـن الحاميـن الفرنسييـن والمحـمييـن التونسييـن الـدين لا يعـادون المحتـل الفرنسـي المسيحي. وأسمـاء هـؤلاء كثيـرة يكـاد أن لا يخـلـو منـها تأليـف تونسي في " أصول الحركة الوطنية" التونسية منهم حسن الجـلاتـي (1) ومحمـد نعمان (2) والصادق الزمر لي(3) وآخـرون عديد ون أي كـل هـؤلاء الـديـن خذلوا عبـد العزيز الثعالبـي (4) واتجاهـه فـي " تـونـس الـشـهيـدة ".

فـهـل مـن الصـدفـة أن لا تبقـي ذاكرة سليمان بـن سليـمان إلا علـى أسمـاء الـثعالـبـي ومـن ناصره؟

وهـل مـن الصدفـة أن يكـون التلميذ القيروانـي الصادقـي الحبـيب جـاء وحـده (5)الدستوري القديم هـو الشخصيـة المركزيـة فـي حياة الشـاب سليمان بـن سليمان أثنـاء السنـوات الـست التـي قضاها في المدرسة الصادقيـة (1919-1925) بـها يمـيز الـوطنـي "شحما وعظمـا" (6) عن الوطنـي صدفـة واللاوطنـي "جينيـا"؟

خلاصـة القـول ، وهدا الأمـر قـد يصـدم الكثيريـن ، هـي أن "العـرق الدينـي" عميـق الغـور شديـد التأثيـر فـي سليمان بـن سليمان ولكننـا بإزاء ديـن لا علاقـة تـربطـه بمـا يعرف عـن هـده التيـارات الدينيـة السلفيـة سـواء أكانت تتسمـى بالسلفية الوهابية فـي نجـد أم جمعية الشبان المسلميـن في تونس أم بسلفية علال الفاسي الجديدة في مـروكـش.

---

1) حسـن الجلاتـي "(1880-1966) من مواليد مدينة الجزائـر.استقرت عائلته بتونـس مع بداية الحمايـة(1881).تحصل على الباكالوريا سنة 1898 بمعهد كرنـو الفرنسي وأحرز على الإجازة في الحقوق سنـة 1902 . اشتغـل بالسياسـة وساهم بعـد الحـرب العالـمية الأولـى في تأسيس الحزب الحر الدستوري ثم انفصل عنه ليؤسس"الحـزب الإصلاحي" سنة 1921": نور الدين الدقي ، حركة الشباب التونسي ، تونس، المط.الرسمية التونسية، 1999، ص 241.

2)محمد نعمان "(ولد 1872). تلقى تكوينا عصريـا في المدرسـة العلويـة في تونس ثم أحرز علـى الإجازة فـي الحقوق في فرنسا .بدأ حياته المهنية معلما في المدارس.مارس الكتابة الصحفية في الجرائد الاشتراكية. عرف بمواقفه المتشددة من الحماية فشملته الإجراءات الزجرية التي سلطت على عدد من وجوه حركة الشباب التونسي فجر يوم 13 مارس 1912":الدقي ، حركة الشباب التونسي ، المرجع سالف الذكر ، ص 252.

---

3)"الصادق الزمر لي (1885-1983) ولد في العاصمة حوالي سنة 1985. انتسب إلى الصادقية ولكنه لم يتم دراسته فيها. اشتغل سكرتيرا في مكتب الـجـلاتـي وساهم في تحرير صحيفتي "التـونسي" و "الاتحـاد الإسلامي" :
نور الدين الدقي ، الحركـة ، مرجع سلف ذكره ، ص 249.

4)"عبد العزيز الثعالبي(1876-1944) مفكر وزعيم مناضل ولد في تونس في 5 سبتمبر 1876 من أصل جزائري.تعلم في جامع الزيتونـة.أصدر سنة 1895 جريدة "سبيل الرشاد".سافر إلى الشرق والى أوربا وتعرف على عدد من السياسيين ورجال الإصلاح مثل محمد عبده ورشيد رضا.وقع إبعاده سنة 1912 اثر "حادثة التراموای".سافر إلى فرنسا سنة 1919 للدفاع عن القضية التونسية.أوقفته السلط الفرنسية وأحالته على المحكمة العسكرية في تونس.سافر سنة 1923 إلى الشرق العربي ثم عاد إلى تونس يوم 9 جويلية 1937 وتوفي فيها في أكتوبر 1944": الدقـي ، الحركة ، صص 239-240.

5)"الحبيب جاء وحده(1901-1967)ولد في القيروان.تابع التعليم الثانوي في الصادقية ودرس في باريس الصيدلة والحقوق إلى غاية سنة 1930.لقب ب "الصيدلـي الشاعر" لكثرة نظمه الشعر "(محمد علي بلحولـة ، الطبيب التونسي :رسالة ومواقف(1893-1993)"، تونس ، مط. أوميقا ، 1995 ، ص 237 وكذلك عادل بن يوسف ، مقال" الصيدلي الشاعر الحبيب جاء وحده" ، المجلة الصادقية ، ع 18 ، أفريل 2000.

6) العبارة للمتنبـي.

7)علال الفاسي (1910- 1974)، مفكر وسياسي مراكشي يعد من رؤوس "حزب الاستقلال" اجتهد في عدد من مؤلفاته في تعريف ما أطلق عليه اسم "السلفية الجديدة".

ومـــن يعــرف الجزائــري علي الحمـــــامي(1) ، مجايـــل سليــمان بــن سليمان ، ويقــرأ روايتــه "إدريس.روايـــة شمال افريقيـــة" فســيــتــأكــد ممـــا نــقول اذ نحــن بإزاء "تــوأمــيــن " فكريــين سيـاسييـــن:

مـــزاج متــمرد علـــى كــل مـــا يرى فيـــه اعوجـــاجـــا دينيـــا أو سيـــاسيـــا وفكـــرة عدالـــة اجتماعيـــة راسخـــة وإسلام يتـــبـــرأ مـــن كـــل معـــاداة لأتـــباع الديانـــات الأخـــرى ثم ، وهـــدا هو الأهـــم ، تفسيـــر للظاهـــرة الدينيـــة فـــي القرن العشريـــن تفسيـــرا تاريخيا ماديـــا باعتبارهـــا أيـــديولوجيـــا تخفـــي ، في الحقيقـــة ، مصالـــح لا علاقـــة لهـــا ، في حقيقـــة الأمـــر ، بالإسلام ولا بالمسيحيـــة ولا باليهوديـــة الأصليـــة. أفلـــم يصـــور سليمان بن سليمان المقيـــم الفرنسي الـــعام "لـــــوسيـــإن سان "(2) الذي أسال ، في تونس و مروكش ، كثيرا مـــن الحبـــر الإسلامي والوطنـــي الواصف سياستـــه" المعاديـــة للإسلام " فـــي عبارات قليلة موجزة تكاد تلخـــص كل ما كتب الحمامـــي عـــنـــه أي عمن سماه "سان لوشـــون" ؟ هده العبارات البليغة الموجزة هي التالية:

" هـــو دبلوماسي حاذق ومـــــوزع مـــنـــافـــع عـــلـــى رجـــال الـــسيـــاســـة الـــتـــونـــسـيـــيـــن. لـــقد كان هـــو أيـــضـــا كـــداس مـــال اذ ســـيـــغـــادر تـــونـــس وقـــد جـــمـــع ثـــروة ضـــخـــمـــة ســـتـــمـــكـــنـــه فـــــي فـــرنـــسا مـــن الـــعـــيـــش عـــيـــشـــة الـــقـــصـــور " (3)

إنـــه لمـــن الصعـــب علـــى المـــرء ، في نظـــرنـــا ، أن ينفـــد ، إن لم يذهب هـــدا المذهب في التفسيـــر ، إلى حقيقـــة مـــا أورده سليمان بن سليمان في" ذكرياته السياسيـــة" عن فترة الدراســـة في المدرســـة الصادقيـــة بين 1919 1925وخاصة في ما يتـــصل بـــمـــديرهـــا "بيـــر بـــوللـــون" (4) وأساتذتها ، كـــل دلـــك ضمـــن إشارات متـــنـــاثرة إلى مـــا كان يجـــد فـــي تونـــس أثنـــاء حكـــم المقيـــمـــين العاميـــن " اتيين فلا ندين " و "لوسيان سان" زمـــــــــــن البايـــين محمـــد الناصـــر ومحمـــد الحبيـــب (1922-1929) مما يتعلـــق بالتونسييـــن ابتـــداء مـــن "الوطنييـــن" وانتهـــاء بـــــ" حـــزب فـــرنـــسا "

---

1) علي الحمامي الجزائري (1902-1949)، روائي جزائري دو نزعة قومية مغربية.مات صحبة التونسي الحبيب ثامر والريفي المراكشي أمحمد أحمد بن عبود في حادث طائرة في سماء الباكستان. انظر عنه : جليلـة المؤدب " ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية:الحبيب ثامر (ت.1949) وعلي الحمامي(ت.1949) وامحمد أحمد بن عبود(ت.1949) رسالة ماجستير مودعة في كلية ع.ا. ا.(9أفريل)تونس ، 2006.

2) لوسيان سان ، مقيم عام في تونس(1921-1929) خلـف في الإقامة "اتيين فلا ندين"(1918-1921).

3)سليمان بن سليمان ، ذكريات سياسيـــة ، مصدر سلف ذكره ، ص 25.

4) بيبـر بوللـــون : مديـــر المدرســة الصادقيـــة من 1912 إلى 1929. نور الديـــن سريـــب : المدرسة الصادقية في تونس 1875-1956(في الفرنسية) ، تونس ، منش. المتوسطـ ألف ، ص 141.

لقد طغت النزعة الاجتماعية في تفكير سليمان بن سليمان منذ هده الفترة المبكرة من حياته اذ هو كثير الإصرار على بيان التقابل بين الريف الزغواني والعاصمة ومن ثم على بيان تعطشه ، باعتباره وليد منطقة تقع خارج منطقة "ضوء المدينة" إلى معرفة "المدينة" والسعي إلى ربط مصيره بمصير "المدينيين"

فمن مظاهر التقابل بين المدينة والريف أنه تمكن في سن الرابعة عشرة من الحصول على الشهادة الابتدائية وهو حدث كان له من القيمة اداك ما لا يتصوره من لم يعيشوا في هده الفترة من دون أن يكون قد سمع حتى باسم المدرسة الصادقية:

" لم أسمع البتة ، حتى السداسي (الهراسي) الأول من عام 1919 ، بالمدرسة الصادقية"(1)

وعندما اجتهد في الالتحاق بهده المدرسة، وهو الذي ينتمي إلى عائلة غير موسرة ليس في إمكانها أن توفر له سكنا في العاصمة ، خاب مسعاه وبقي هدا الشعور غائرا في ذاكرته:

" تملكني شعور من تعرض للحكم عليه. وأحسست بتعاسة بالغة" (2)

وحتى عندما تمكن من الالتحاق بهده المدرسة ستعتبر المنحة التي أسندت إليه منة أو شبه صدقة تقيد التلميذ اذ

"كان من الصعب علينا جدا نحن المتمتعين بمنحة كاملة لمدة ست سنوات أن نكثر من الاحتجاج"(3).

وفعلا فان المدير "بوللون" لم يكن ينسى ، في كل مناسبة ، أن يذكر هؤلاء التلاميذ الفقراء بدلك:

" لاحظ لنا المدير "بوللون" أنه ينبغي علينا ، بوصفنا ممنوحين" ألا نكون متشددين في مطالبنا"(4)

إن هدا الإحساس بالحيف الاجتماعي سوف يذهب شيئا فشيئا بالشوق إلى المدينة الذي كان يتملك هدا التلميذ الريفي وهو شوق كان قد بلغ قبل الالتحاق للدراسة في العاصمة من القوة حدا دفعه إلى تدوينه في "الذكريات":

" قررنا أن نجتاز هدا الامتحان حتى نقوم خاصة برحلة إلى تونس فقد كان في العاصمة الكثير مما تستحسنه العين ويستمرئه التذوق خاصة. لقد كان من هم أكبر منا سنا يروون لنا أشياء كثيرة. كانوا يحدثوننا عن "اكتشافاتهم". إن رحلة إلى تونس كانت بالنسبة إلي ، أنا المنحدر من عائلة متواضعة أملا بعيدا. وها أن المشاركة في هده المناظرة تتيح لي إمكان تحقيق هدا الأمل" (5).

---

1)سليمان بن سليمان ، الذكريات ، مصدر سلف ذكره ، ص 20.

2)سليمان بن سليمان ، الذكريات ، ص 20.

3)سليمان بن سليمان ، الذكريات ، ص23.

4) سليمان بن سليمان ، الذكريات ، ص 23.

5) سليمان بن سليمان ، الذكريات ، ص 21.

هـده المدينـــة انكشفـت حقيقتهــا فــي عينــي الشاب سليمان بن سليمان فادا هــي حتى على المستـــوى الدراســي فريسة الفرنسييــن وشيعتهـم مــن التونسيين ممثليــن في الثنــائــي المديــر "بوللون " والأستاذ التونســـــــي مــحـمـد الصالـــح مـــزالـــي(1). فمـا هي الصورة التـــي رسمهـا سليمان بن سليمان في "الذكريات السياسيـة " لكـــل مــن "بوللون" ومـزالـــي؟

إن "بييـر بوللون" هو ثانـــي الإطارات التعليميـــة الفرنسيـــة المشرفـــة علـــى المدرســـة الصادقيـــة بعــد "ماريوس دلـمـــاس" (2) الذي عينتـــه سلط الحمايـة بدايـة مـن 1892 للإشراف عليهـــا والتصرف في أموالها (3).

كتب أحمد عبد السلام :

" خلـــف دلمـــاس(في إدارة المدرســة) مساعده ومراقب الدروس أيام إدارته "بيير بوللون" الذي تولى إدارة المدرســـة من عام 1912 إلى 1927" (4).

لـــقد كان "بوللون" نموذجا للمدرس التقليدي انضـباطا وصرامة. وقـد وصفـه سليمان بن سليمان على النحو التالي:

"كان المدير بوللون رجـلا يبعــث وجهـــه وهيئـتـــه الـنسكـيـة علـــى الـرهبـة"(5)

ويبـــدو مـــن وصـــف سليمان بن سليمان المدير "بوللون" أن رجـــل التعليـم هـدا كان ذا حـضور قوي على الرغـم مــن أنـــه لـم يكـن يظهـر في ساحــة المدرســـة إلا زمـــن إعلان النتائـــج. ولـــقد أثرت هده الشخصيـة في سليمان بن سليمان التلميذ مثله في دلك مثـل بقيـــة التلاميذ (6) فتوجم هدا التأثيـــر كتابـة في ذكرياته السياسيـــة واصفـــا لقاءات "بوللون" بالتلاميذ كما يلي:

"خيـم صمـت مذهل على التلاميذ إلى درجـــة سمعنا فيها صوت الذباب وهو يطير كما يقال في حالات مماثلة.كان "بوللون" يفرض (هدا الصمـت) نـــــظرا إلى هـــيـــئـــتـــــه الـــصارمـــــــــــــة وشـــــــــــبهــــــه

---

1)" محمد الصالح مزالي (1896-1988).درس في الصادقية ثم في معهد "كرنو"ومنه أحرز على شهادة الباكالوريا.واصل تعليمه العالي في فرنسا وتحصل على الدكتورا في الحقوق والعلوم الاقتصادية.عمل بعد التخرج في الإدارة التونسية وشغل عدة مناصب سامية في عهد الحماية الفرنسية.كتب المقالة والدراسة التاريخية والمذكرات في العربية والفرنسية خاصة.ويذكر م ص مزالي في مذكراته"أيام حياتي"(بالفرنسية. والتعريب لصاحب المقال وهو ضعيف لأنه سريع) أنه هو الذي وضع أثناء وزارته حجر أساس كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية الحالية في تونس" حمادي الساحلي ، المجلة الصادقية، ع 20 ،أكتوبر 2000، ص 580.

2)" ماريوس دلماس(1892-1912)أول إطار فرنسي يترأس إدارة المدرسة الصادقية.كان أحد أساتذتها الفرنسيين.وهو مستشرق ممن عاشوا بالجزائر"أحمد عبد السلام ، المدرسة الصادقية والصادقيون ، قرطاج، بيت الحكمة، 1994، ص .35

3)أحمد عبد السلام ، المدرسة الصادقية، مرجع سلف ذكره ، ص 30

4)أحمد عبد السلام ، المدرسة الصادقية ، ص49.

5)سليمان بن سليمان ، ذكريات سياسيةٍ ، مصدر سلف ذكره ، .29

6)رفاق سليمان بن سليمان الداخليين في الدراسة في الصادقيـــة (1920-1921):عبد الحميـد النــابلـــي- عبـد القادر بعطــون – محمـد سليم-

أحمــد صمعيـــة- أحمـد الجربى- سالـم بوقره – علي كـريـم- محمـد بـن هنـدة – مصطفـى خزنـدار- أحمد صفـر- محمــد علـــي العنــابـــي- محمد الخــدري – مصطفى بفـــون – محمـد القرمـــازي – محمـد مليكـــة-الصغير العيــاري- الصادق خليـــل –الصادق الزميــتـي- علـــي كـمـــون- إدريس معمــر - جلــولـــي فــارس- محمد صالح عاكـــف – عبـد الرزاق خـــفـــشـــة-..الباجـي – البشيــر المز طوري - ...العياشـــي. بابـــا خليفـــة – مختــار شقـــرون- الـــطاهــر صفــر- محمـد العـــابد مـــزالي- المـــنوبـــي بن بشيـــر – إبراهيم المشـــري- سليمان بن سليمان _ الصـــادق بوصـــفـــارة – عبـــد السلام المستيـــري – الطاهر بـــن رجــب- محمــد فرشيـــو- محجـــوب بن رجب – محمـــود عبـد المـــولـــى- الكيلانـــي جويـــدة – جلـــول بـــن شريفـــة- محمـود العـــرابـــي- البحري قيقـــة-

أحمـــد المـــلـــيح- محمـــد المـــعـــاوي .(المصدر:من صورة في "الطاهر صفر(1903-1942)ل خالد عبيد ، المعهد ع.لتاريخ الحركة الوطنية ، 2003.).

ب "كليمنصو"(1) وقلـــة اتصالـــه بالتلاميذ"(2).

إن الصـــورة الصـــارمـــة التي رسمهـــا ابـــن سليمان لـــ"بوللون" إنـــما تعكـــس ، في حقيقـــة الأمـــر ، نظامـــا تعليميـــا فرنسيـــا كامـــلا قوامـــه الانضبـــاط والإيمان بدور التعليـــم فـــي نـهضـــة الأمـــم . وليـــس تهم ، هنا ، الإشارة إلى أن الغرض مـــن حصـــر تعليم التونسييـــن في حدود اجتماعيـــة ضيقـــة هو ضمان إنـــتـــاج جيـــل من التـــونسييـــن يطبـــق أوامـــر السلـــط الفرنسيـــة ويحقـــق رغباتهـــا فهـــدا أمـــر معهـــود في كل استعمار .
والحقيقـــة هي أن "بوللون" لم يكـــن، علـــى الرغـــم مما كان يبـــدو عليـــه مـــن صرامـــة ، فاقـــدا للحـــس "البيداغوجي" بـــل "النفســـي".وهـــدا الأمـــر خبـــره سليمان بـــن سليمان وأعجـــب بـــه.
لقد درج عـــدد من الدراسات علـــى أن ينســـب إلى المديـــر "بوللون" ، وهو المـــوظـــف في مدرســـة ثانويـــة لا تصل بتلاميذها إلى مستوى الباكالوريا في محميـــة مـــن المحميـــات الفرنسيـــة ، مـــا لا يصـــح أن ينســـب إلا إلى كبار ساســـة الجمـــهوريـــة الثالثـــة في فرنسا بل في باريس. ومـــن هـــده الدراسات دراســـة أحمد عبد السلام الذي حمل "بوللون" ما لا يمكن أن يتحمـــل:
"كان يولون حتـــى سنـــة 1927 ، زمـــن خروجـــه في التقاعـــد المبـــكـــر ، يرفـــض كـــل تطـــوير في المعهد الصادقـــي ســـواء أكان في عـــدد التلاميذ أم فـــي برامـــج الـــدراســـة أم فـــي فتـــح الآفاق المستقبليـــة التي كان يمكن أن يطمـــح إليها التلاميذ"(3).
إن سلطـــة الحمايـــة التي كان عليهـــا أن تطبـــق سياســـة الجمهوريـــة الثالثـــة لـــم تكـــن ترغـــب فـــي أن يصبـــح عدد كبير مـــن أبنـــاء التونسييـــن أطباء ومحاميـــن ومهندسيـــن أي يمتهنون هده "المهن النبيلـــة" أي مهن الطبقة الوسطى لدلك جعلـــت مـــن الصادقيـــة مؤسســـة تزودهـــا بالمتـــرجميـــن ومفتشـــي الشرطـــة (4) يأتمرون بأمرها ويطبقـــون أوامرهـــا.
ولقد تفطنت الطبقـة المثقفة في تونس إلى هدا الأمر وخاصة منها الصحافيين الدين عبـــروا عن استيائهم في مقالات تصدرت أعمدة المجلات والجرائد. ومن بين هـــــــــؤلاء الـــصـــحافـــــــــيـــــــــن نـــــــــجد

---

1) جورج كليمنصو(**1841-1929**) " سياسي فرنسي داهية عرف بلقب "النمر"شغل منصب رئيس وزراء فرنسا (**1906-1909**)و(**1917-1919**).من أبرز مؤلفاته نذكر ترجمته إلى الفرنسية كتاب"أوغست كونت والايجابية"للمفكر الانكليزي "جون ستيوارت مل" و "في سماء الفكر"و"على مر الأيام"...وكان منكبا على كتابة مذكراته "أمجاد النصر والأمة"عندما توفي.وقد دفن نعشه عموديا لأنه أوصى بقوله"حتى في مماتي أود أن أبقى واقفا" (محمد بودينة، أحداث العالم في القرن العشرين ،تونس ، منش محمد بودينة، مج **1920-1929**.

2) سليمان بن سليمان ، ذكريات سياسية ، ص **36**.

3) أحمد عبد السلام ، الصادقية والصادقيون (في الفرنسية) ، تونس ، سيريس للإنتاج ، **1975** ، ص **56**.

4) بقدر ما رأينا الكتاب التونسيين يؤلفون كتبا تؤرخ للأدباء وللصحافيين وللأطباء..لم نر كتابا واحدا يؤرخ ل..الشرطـــة ولحكام التحقيق وفي القوم أساطيـــن. فبماذا نفســـر هـــدا " الحيـــف" ؟

فرحات الجعائبي (1)يخص المدرسة الصادقية بجانب غير هين من اهتماماته اذ كتب في هدا الموضوع العديد من المقالات في أعمدة جريدته "الصواب" منها ما كتب في نقد مديرها، وهو نقد لا نظن إلا أنه متحيز لأنه ، ببساطة ، يستند إلى مصدر" قيل إنه قال":

" على أن جناب المدير (بوللون) له تأثير كبير في هدا التأخير. فقد قيل إنه قال لبعض الأساتذة: ليس القصد من تعليم أبناء المسلمين أن يخرج منهم كيمياويون أو طبيعيون أو اختصاصيون في فن الحساب ولكن مرادنا أن نجعل منهم طائفة دلولة مدبدبة تعيش مرؤوسة تحت نير رؤساء من الافرنسيين"(2)

والحقيقة هي أن تحفظنا إزاء الكثير مما كتب عن المدير "بوللون" يبرره أن سليمان بن سليمان الذي يهمنا في هده الدراسة الابتدائية الموجزة ، لا يذهب مذهب القوم في تقييم "بوللون" وإدارته والأساتذة الفرنسيين إيمانا منه ب"أن التعميم هو لغة الحمقى" لأنه لمس ، بالتجربة، أنه يوجد من بين الأساتذة الفرنسيين تقدميون مثلما يوجد من بين الأساتذة التونسيين من هم " أكثر ملكية من الملكة الفرنسية"نفسها.

نلاحظ ، ادن ، أن المدير "بوللون" شخصية أسالت الكثير من الحبر وتعرضت للكثير من اللوم ف" لم يسلم مدير المعهد بولون من الانتقادات التي كانت في بعض الأحيان انتقادات لاذعة"(3) وهي انتقادات تناولت مختلف مناهج التعليم في المدرسة الصادقية كما تناولت مآل الموارد المالية التي أوقفها المشير الثالث محمد الصادق بأي(4)للارتقاء بهده المؤسسة التعليمية وإعداد التلاميذ للدخول إلى كليات أوربا ، وهو ما سعت إدارة الحماية إلى الحول دونه من خلال تحوير أهداف هده المدرسة لتصبح " مدرسة للترجمة لتجني منها ما تريده وتهواه من المترجمين الدين لا يمكن للحكومة الاستغناء عنهم نظرا لشكلها الحالي"(5).

هدا فيما يخص نظرة سليمان بن سليمان إلى مدير المدرسة "بيير بوللون" الفرنسي والراديكالي والماسوني جميعا.

فما هي ياترى نظرته إلى بعض "أبناء جلدته" من الأساتذة التونسيين ؟

يعد الأساتذة الدين التحقوا بسلك التعليم، شغفا لا صدفة، قاطرة حضارية حقيقية .فهم الدين يضطلعون مبدئيا بدور تنمية وعي تلاميذهم العام. ويتضاعف هدا الدور في الظروف التاريخية التي تهيمن فيها قوى استعمارية فيصبح

---

1)محمد بن فرحات الجعايبي "نشأ في إطار سياسي استعماري.ولد بتونس قبل فترة قصيرة من انتصاب الحماية حوالي 1880 حسب البعض وحوالي 1876 حسب أرشيف الحكومة.زاول تعلمه بالكتاب القرآني ثم بجامع الزيتونة ولم يتخرج منه بأية شهادة.تعلم صناعة نسج الحرير كما تعاطى التجارة.كانت بدايته الصحفية عام 1904.يعتبر من أكبر الصحافيين الدين عرفتهم تونس"(محمد حمدان ، أعلام الإعلام في تونس 1860-1956 ، تونس ، مركز التوثيق الوطني ، صص 62-65.

2) الصواب عدد 303، 14 ماي 1920.

3)نور الدين سريب ، المعهد الصادقي في تونس ، مرجع سلف ذكره ، ص 143.

4)محمد الصادق باي(1859-1882)"ولد يوم 7 فيفري1813 واعتلى العرش وعمره46سنة.أدخلت في عهده العديد من الإصلاحات مثل إنشاء المطبعة الرسمية سنة 1860 و "الرائد الرسمي" وإدخال التلغراف وتعميم استعماله وإصدار دستور 1861...وتواصل هدا المجهود وتدعم عندما تولى خير الدين الوزارة الكبرى بين 1873 و 1877 فأنشئت "المدرسة الصادقية ونظم التعليم الزيتوني وبعثت جمعية الأوقاف إلا أن هده الإصلاحات لم تكن كافية لانقاد البلاد من الأزمة الاقتصادية...مما أدى سنة 1869 إلى إفلاس الدولة الحسينية.. أمضى يوم 12 ماي سنة 1881 "بالقصر السعيد" ...معاهدة الحماية . وتوفي يوم 28 أكتوبر 1882 (نور الدين الدقي وعبد المجيد كريم والهادي جلاب : تنظيم الحكم في تونس في فترة الحماية الفرنسية1881-1956 ، تونس ، منش المعهد العلي لتاريخ الحركة الوطنية ، 1998 ، ص 183.

5) محمد الجعايبي ، مقال "معاهد التعليم (6) ، جريدة الصواب ، ع 303 ، 8 أكتوبر 1920.

الأهالي خاضعين لسلطة خارجية تقوم بنهب خيرات بلادهم وتشويه تاريخهم ، فيتحول إلى دور وطني وبدلك يتخطى الأستاذ المهام التي خص بها حتى اذا ما شد أحد هؤلاء الأساتذة عن هدا الالتزام الوطني رأيت أن هدا الشدود كثيرا ما يلاحظه أكثر التلاميذ حسا وطنيا بحكم العلاقة الحميمة التي تربط الأستاذ ، شاء دلك أم أبى ، بالتلاميذ.

لقد علق سليمان بن سليمان ، شأنه في دلك شأن كثير من أصدقائه التلاميذ ، آمالا على أساتذتهم التونسيين وأراد أن يكون لهم الفضل في تنمية فكره الوطني لكنه سرعان ما أصيب بخيبة أمل عند دراسته على أستاذه التونسي مرحمد الصالح المزالي (وهدا اللقب بربري اذ توجد قبائل كاملة شمال مروكش تحمله :أمزال) الذي يصفه سليمان بن سليمان في كتابه "ذكريات سياسية" وبلغته المباشرة العارية من المجاملة بأنه وقع فريسة لنظام الحماية فهو عنده " مثقف فاقد الشخصية مخلص لنظام الحماية الذي دلله كثيرا"(1) بل إن سليمان بن سليمان لجأ إلى ما يشبه الرسم الكاريكاتوري في وصف أستاذ التشريع في المدرسة الصادقية من خلال عرض قصة تحقيق في صفوف التلاميذ "المشاغبين":

" وعندما وصل "تريمسال"(المحقق وهو موظف سام في إدارة التعليم) إلى (التلميذ) العابد مزالي (2)عمد (الأستاذ) محمد الصالح مزالي، خلف ظهر كل من ترمسال و بولون ، إلى الهمس في اتجاه العابد: قل نعم . قل نعم. لقد كان المشهد ، حقا ، مشهدا ساخرا" (3).

كان تصوير سليمان بن سليمان أستاذه مرحمد الصالح مزالي بهده الملامح النفسية السياسية نابعا من وعيه وجوب فضح الجناح الموالي لسلطة الحماية ضمن الفئة الصغيرة المثقفة من المجتمع التونسي وهي فئة اندماجية تشبه إلى حد كبير تيار طالب الصيدلة الجزائري فرحات عباس(4) اذ حصرت مطالبها في ضرورة ارتقائها وارتقاء من تمثل طبقيا بالمعنى الماركسي للكلمة إلى المناصب على حساب "شعب" كامل ، فئة أصبحت موالية للفرنسيين على حساب أبناء بلادها تساعدهم في تحقيق مآربهم إما عن قصد مضمر سلفا وإما نتيجة قصر نظر كان على الدوام سمة " الأساتذة الزنابير" في كل مكان.

ولقد كتب ، نظرا إلى خطورة هدا الأمر ، عدد من الصحافيين في أعمدة الجرائد مقالات عن هده الفئة فنحن نجد على سبيل المثال ،محمد الجعائبي يكتب في إحدى مقالاته لائما أمثال هؤلاء الأساتذة :

---

1)سليمان بن سليمان ، الذكريات ، ص37

2)محمد العابد مزالي(1906-1997)"أحد رجال التربية والتعليم.ولد بالمنستير..تخرج من جامعة الصور بون بباريس. تولى عدة مناصب حكومية منها كاهية مدير العلوم والمعارف وكاتب عام وزارة التربية القومية .استقال في بداية الستينات من مهامه في وزارة التربية القومية وعين من طرف اليونسكو خبيرا دوليا مختصا في شؤون التربية والتعليم فاستقر في سويسرا إلى أن انتهت مهمته لدى هده المنظمة .وعندئذ عاد إلى تونس وتفرغ للبحث والتأليف"(محمد بودينة ، مشاهير التونسيين ، ط.3 ، 2001).

3) سليمان بن سليمان ، الذكريات ، ص .37

4)فرحات عباس (1899-1985)" سياسي ورجل دولة جزائري.ترأس أثناء حرب التحرير الوطني الجزائري الحكومة المؤقتة بعد أن كان في السابق من أنصار الاندماج مع فرنسا. ولد في طاهر بمنطقة القسنطينة(كدا) من عائلة بورجوازية. حصل على ثقافة فرنسية. تحصل في عام 1933 على الإجازة (كدا) في الصيدلة كما كان قد أنهى خدمته العسكرية في الجيش الفرنسي.وقد أنشأ في سطيف صيدلية وفي الوقت نفسه انطلق في الميدان السياسي. كتب العديد من المقالات الصحفية كما أنشأ مجلتين أسبوعيتين "التفاهم" و "المساواة".أصدر في عام 1926 (كدا) كتابا بعنوان "الشاب الجزائري" ضم مجموعة من مقالاته التي تدعو إلى مستقبل جزائري فرنسي مشترك كما أصدر في عام 1962 "ليل الاستعمار" وفي عام 1984 "الاستقلال المصادر"(بالفرنسية): موسوعة السياسة ، بيروت ، المؤسسة الع.للدر. والنشر، ط.3 ، 1990.

" هـدا مـا للأساتذة مـن التـوانـي والتـثـاقـل ونـزوعهـم إلى إغفال نصـح تلاميذهم فكانوا ، سامحهم الله ، مدفوعيـن إلى هـدا الصنيـع بقـوة خفيـة. لـدلـك تراهـم يقضـون معظـم أوقاتهـم في السفاسف والقشـور والتلفيقـات ومـا لا يفيـد ولا يـجـدي"(1).

أحدث وقوع عـدد من الأساتذة التونسيـين " الصادقييـن الكرويين" ممثلين في محمـد الصالـح المـزالـي في مخـالب السلط الاستعماريـة رجـة في نفـس سليمان بن سليمان ، هدا التلميذ الصادقي المتحفـز وطنيـا وتعمـقت خيبتـه في أستاذه خاصـة عندمـا قارن تصرفات هـدا المدرس التونسـي الذي سيضـطلع فيما بعـد بمهـام سياسيـة وصلـت إلى حـد تولـي رئاسـة وزارة ستقـع الإطاحة بها سنـة 1954 ، بتصـرف أستاذه الفرنسـي "لسكان" أستاذ اللغة العربيـة في المدرسـة إزاء تلاميذه عندما قرر المديـر "بوللون" معاقبـة عدد منهم معاقبـة "وطنيـة" تتمثـل في إجبارهم على المشاركة في الاحتفـال ب"زيـارة" رئيـس فرنسا "الكسندر ميلليران" تونس سنـة 1922 اذ قام الأستاذ "لسكان" بتشجيع تلاميذه عند مرورهم أمام المنصـة التي كان يجلس خلفها فانتصر لهم بمثل هدا السلوك الذي كان له وقع في نفوسهم في هده السن الحساسة التي تتأثر حتى بما قد يبدو تافها عندما يكبر المرء وتنال منه السنون بدليل ما ترسب في ذاكرة سليمان بن سليمان من ذكريات عن هدا الاحتفال. أفلم يكن الأجـدر بأستاذه التونسي أن يناصر هؤلاء التلاميذ بـدلا من الانتصار لخصومهم؟

إن تناول سليمان بـن سليمان شخصيتـي كل من مـدير المدرسـة الصادقيـة "بوللون" وأستاذ التشريع محمد الصالح المزالي بالتحليل إنـما يعنـي ، فـي حقيقـة الأمر ، أنه يعتبرهمـا مثاليـن علـى أزمـة حقيقيـة كانت تعيشها تونس (وهنا فقط يمكننا أن نعمم من دون خشية اتهام فنقول إنها أزمة مغربية بل عربية)في منتصف العقد الثالث من القرن العشرين دلـك أن هـدا البلد لـم يـكن ، مثلما تدعيه المعاهد العليا للحركات الوطنية ، يعيش خصومـة بين طرفين لا يلتقيان هما فرنسا الحاميـة من ناحيـة وتونس المحميـة من ناحيـة ثانيـة وإنما كان يـوجـد في الطرف المحمي مـن فضـل أن يكون نصيرا للطرف الحامي مثلما كان يوجـد في الطرف الحامي من فضـل أن يكون نصيرا للطرف المحمي. وهدا أمر تفرضه الطبيعة ذاتها اذ هي لا تعرف السواد المطلق والبياض المطلق ومن لم يجار الطبيعة وهو في نهاية الأمر جزء منها ، في منطقها فهو يعمـد ، إما جهلا أو كذبا على نفسه أو على الناس ، إلى منطـق "التعميـم" و " ما التعميـم إلا لغـة الحمقـى".

ولسـوف تـؤثـر هـده التجربـة المبكرة في نفـس سليمان بن سليمان وفي تكوينـه السياسي اللاحـق أيـما تأثير اذ سنـراه دائما في ما بعـد لا يتحـدث عن الأجنحـة الوطنيـة في تونس وفي غيرها إلا بربطها بالمصالح وبمدى اتساع رقعـة هده المصالح أي بمدى شمولها أوسع الفئات الاجتماعيـة. ومـن يـع هـدا الأمـر فقـد حصـن نفسـه نهائيـا ضد كـل أشكال الايدولوجيا ومنها الايدولوجيا الوطنيـة التي لا تـتـبنـى فكـرة العدالـة الاجتماعية (لا الإحسان) باعتبارهـا الغايـة (الجينـة) الحقيقيـة من كل مطلـب استقلالـي.

---

1)محمد الجعايبـي ، مقال "المدرسة الصادقيـة(5) ، جريدة الصـواب ، ع 303 ، 14 ماي1920